بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ٦ (ربيع وصيف ١٤٣٣ هـ. ق/ ١٣٩١ هـ. ش)، ص ٢٧ ـ ٤٠

ملامح النرجسية في فخر المتنبي وحياته[1]

خداداد بحري❖

ملخّص البحث

المتنبي من أبرز شعراء العرب وأكثرهم تأثيراً في الأدب العربي. إنه شاعر مفلق قد تكلّم في أغراض شتّى كالمدح والرثاء والفخر و... ولكنّ الفخر قد سيطر على شعر هذا الشاعر الجليل، بحيث يرى القارئ ظلاله في جميع قصائده ؛ سواء كانت القصيدة في المدح أو الهجاء أو الغزل أو غيرها. أمّا فخره، فقد اقتصر ـ بخلاف فخر غيره ـ على نفسه ؛ فلا يفتخر الشاعر بقومه رغم كثرته في شعره، ولا يتنازل عن التغنّي بنفسه حتى حين يمدح ممدوحيه ؛ لذلك قد بنى الباحث هذه المقالة على هذه الفرضية بأنّ المتنبّي قد أصيب بنوع من الحبّ الزائد بنفسه والتكبّر والغرور، أو ما يسمّى في علم النفس بـ«النرجسية».

تقوم المقالة أولاً بدراسة كلمة النرجسية لغةً، وبيان مفهومها عند علماء النفس اصطلاحاً، وتعدّد مظاهرها في المصابين بها، ثمّ دراسة ملامحها في فخر المتنبّي ـ كأحسن موضع لتجلّي شخصية الشاعر ـ بإيراد أبيات من شعره تومئ إلى إصابته بالنرجسية ؛ ثم تبدأ البحث ثانياً في حياته الاجتماعية عن أمارات تدعم هذه الفرضية. إلى جانب ذلك تعالج المقالة سبب نموّ النرجسية في شخصية المتنبّي من خلال دراسة حياته، والبيئة التي نشأ فيها، والكفاءات التي كان الشاعر يتمتع بها. وانتهى الباحث إلى أن لدى الشاعر مظاهر من النرجسية تتجسّد ـ كما ستلاحظ ـ في تعظيم نفسه، وعدم اعتداده بآبائه، وتحقير الآخرين، وحبّ الظهور، وتعظيم المشاكل، وعدم وفائه لممدوحيه.

المفردات الرئيسية : النرجسية، الفخر، المتنبّي، النقد النفسي للأدب

المقدّمة :

حبّ الإنسان لنفسه غريزة مكنونة في ذاته شائعة في جميع الأجناس البشرية ؛ فتتجلّى آثاره في شخصية جميع أبناء الإنسان. ربّما من أهمّ تجلّياته الإيجابية تكريمه لذاته وميله للبلوغ إلى أهدافه. فهو نزعة فطرية ضرورية في حدودها المعتدلة، لكن قد يكثّف ميل الإنسان إلى نفسه شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى مرحلة الإعجاب بنفسه، والتكبّر وتحقير الآخرين، وهذه هي التي تسمّى بـ«النرجسية».

---

١. تاريخ التسلم : ١٣٩١/٣/٣هـ. ش (٢٠١٢/٥/٢٣م) ؛ تاريخ القبول : ١٣٩١/٦/٢٥هـ. ش (٢٠١٢/٩/١٥م).

❖ أستاذ مساعد بجامعة «خليج فارس» ـ بوشهر.

تتجلّى آثار النرجسية في أفعال الإنسان خاصّة في علاقاته مع الآخرين، كما تتجلّى في كلامه وأقواله، وفي الآثار الفنّيّة الكلامية كالنثر والشعر. فتظهر آثارها في فخر الأديب بنفسه، وتعظيم أفعاله، والإقلال من شأن الآخرين بهجوهم وتحقيرهم خاصّة عند مقارنتهم بنفسه.

لا يخلو المجتمع العربي ـ كغيره من المجتمعات البشرية ـ من أدباء وقعوا في حبّ أنفسهم والإعجاب بها، بحيث رأوها المحور الأوّل والأخير للفخر بها. من أبرزهم المتنبّي، وهو شاعر وُلد في الكوفة (الزركلي،٢٠٠٢م، ص ١١٥) في بيت بعيد عن صيت يذكر أو مقام معروف، فقد يتكفّل أبوه مؤونة أهله ببيع الماء (السمعاني، ١٩٨٤م، ص ١٢٥ـ ١٢٤). رغم ذلك، نشأ محبّاً للعلم والأدب **«اختلف إلى كُتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة؛ فكان يتعلّم دروس العلوية شعراً ولغةً وإعراباً؛ فنشأ في خير حاضرة»**. (الخطيب البغدادي، ١٩٩٧م، ص ٣٤٧). إضافة إلى ذلك، ظهر ثائراً في عنفوان شبابه، فحُبس مدّة إثر ثورته حتّى أشرف على الهلاك (ابن خلّكان، د ت، ص ١٢٢).

إنّ هذا الشاعر الذي نشأ في مثل هذا البيت وبهذه الروح الثائرة قد تفوّق على شعراء زمانه وعلماء عصره، بحيث التحق سريعاً بأمراء عصره وولاته من أمثال أبي العشائر الحمداني وبدر بن عمّار وسيف الدولة الحمداني وكافور والي مصر وابن العميد وعضد الدولة (الصفدي، ٢٠٠٠م، ص ٢١٥).

يرى الباحث في شعر المتنبّي اختلافاً بيّناً بين شعره وشعر غيره؛ إذ إنّ الشاعر لم يكد يترك قصيدة تخلو من أبيات يفتخر فيها بنفسه، مادحاً إيّاها بالشجاعة والصبر وعلوّ الهمّة والعلم والفصاحة و...، أو أبيات يرفع فيها نفسه على الناس ويقلّل من شأنهم. ويعجب الباحث حين يرى ندرة ذكره لقومه، وارتكازه الدائم على نفسه في فخره، رغم كثرته في شعره. ويزداد عجبه حين يرى الشاعر لا يتنازل عن الفخر بنفسه حتى حين يمدح ممدوحيه. وهذه كلّها تؤدّي إلى أن يفترض أنّ المتنبّي قد أصيب بنوع من الحبّ الزائد بنفسه، والتكبّر والغرور، أو ما يسمّى في علم النفس بالنرجسية. لذا قد بُنيت هذه الدراسة على أساس هذا المفروض، وقام فيها الباحث بإيراد أبيات من شعر المتنبّي تومئ إلى إصابة الشاعر بالنرجسية، وبالبحث في حياته عن أمارات تدعم هذه الفرضية.

ويجدر بالذكر أنّ صيت المتنبّي ونفوذ كلامه لفتا أنظار النقّاد والباحثين منذ حياة الشاعر؛ فألّفوا حوله وحول كلامه كمّاً كثيراً من الكتب والدراسات. منها: شروح على شعره كشرح ابن جنّي، وشرح العكبري، وشرح الواحدي، وشرح أبي العلاء المعرّي المعروف بـ*معجز أحمد*، *والواضح في مشكلات شعر المتنبّي* للأصفهاني؛ ومنها: نقد كلامه مثل رسالة *الكشف عن مساوئ المتنبّي* للصاحب بن عبّاد، *والوساطة بين المتنبّي وخصومه* لعليّ بن عبد العزيز الجرجاني، *والصبح المنبي في الكشف عن حيثية المتنبّي* للبديعي؛ ومنها: ترجمة لحياته مثل ما جاء حوله في كتب التاريخ.

واستمرّت دراسة شعره وحياته إلى عصرنا هذا؛ فقام بعض العلماء بمعالجة حياته، كما فعل طه حسين في كتابه *مع المتنبّي*، ومحمود شاكر في *المتنبّي*. وقام بعضهم بدراسة أفكاره، كما فعل شوقي ضيف في *الفن ومذاهبه في الشعر*، وقام بعض آخر بدراسة شعره دراسة بلاغية، مثل ما ترى في كتبٍ أمثال *الصورة الفنّية في شعر المتنبّي* لمنير سلطان، وفي *التصوير البياني في شعر المتنبّي* للوصيف هلال الوصيف.

أمّا الدراسات التي تعالج نفسية شاعرٍ بنى بنيان شعر خالد لن يتهدّم بمرّ العصور قليلةٌ بالنسبة للدراسات السابقة، تجد إشارات إليها في مقالات مثل: «نفسية المتنبّي: تحليل لبعض نواحي حياته» لمحمّد مظهر سعيد، و«شخصية المتنبّي في شعره» لعبّاس محمود العقّاد، و«مرض نفسي» لعبد الرحمن صدقي نشرتها مجلة *الهلال* في عدد خاص في الذكرى الألفيّة للمتنبّي عام ١٣٥٤هـ، كما تجدها في مقالة ليوسف سامي يوسف بعنوان «لماذا صمد المتنبّي؟» في جزئين نشرتهما مجلّة *المعرفة* السورية في عددي ١١٩و٢٠٠ عام ١٩٧٨م.

فليس من بينها ـ حسب معلوماتي ـ دراسة تختصّ بمعالجة ملامح النرجسية في شعره وجذورها في شخصيته. وهذه هي التي يريد الباحث الاهتمام بها في هذه المقالة.

الجدير بالذكر أنّ هذه الدراسة ترتبط بمنهج «النقد النفسي» الذي يحاول أن يفسّر الأدب على أساس نفسيّ، لأنّ كلّ عمل فنّي صورة من صور التعبير عن النفس (عتيق، ١٩٧٢م، ص ٢٩٥)، ومصدر شخصي تتكشّف فيه دواخل الشاعر أو الأديب (الحسماني وعبدالخالق، ١٩٩٠م، ص ٢١٤).

والدراسات النفسية للآثار الفنيّة ثلاثة أنواع:

أ. في نوع منها يقوم الباحث بتحليل الأثر الأدبي لاستخراج بعض المعلومات عن نفسيّة صاحبه، أو يقوم بتحليل مجموعة من آثار المؤلّف لاستخراج النتائج العامّة منها عن حالته النفسيّة، ثمّ يطبّق هذه النتائج في تفسير آثاره الأدبيّة؛

ب. وفي نوع منها يدرس الباحث سيرة الأديب وأحداث حياته و يوميّاته لبناء نظريّة في تفسير شخصيّته، وبالتالي في تفسير آثاره؛

ج. وفي نوع منها يدرس الدارس حياة المؤلّف وآثاره معاً، فينتقل من حياة المؤلّف إلى آثاره ومن آثاره إلى حياته.

(عزام، ٢٠٠٦م، ص ١٠٠)

وهذا الأخير هو الذي اتّبعته هذه المقالة.

وممّا يجب الانتباه إليه أنّ المنهج النفسي ـ رغم أنّه أداة مناسبة لمعرفة شخصيّة صاحب الأثر الأدبي وحالاته النفسيّة عن طريق استنطاق آثاره وتاريخ حياته ـ قاصر عن بيان القيم الفنيّة للأثر الأدبي؛ إذ إنّ «**العمل الأدبي الرديء كالعمل الجيّد من ناحية الدلالة النفسية، كلاهما صالح للاستشهاد به**» (عتيق، ١٩٧٢م، ص ٢٩٦)؛ لذا لا أريد في هذه الدراسة إلاّ البحث عن ملامح النرجسية عند المتنبّي، وهي حالة نفسيّة تحمل صاحبها على اتخاذ أفعال خاصّة في سلوكه. وتكون الدراسة عن طريق استنطاق فخر المتنبّي ودراسة سيرته في حياته معاً.

وأتابع البحث بحسب العناوين التالية:

معنى النرجسية

أُطلقت كلمة «النرجسية» في المعاجم اللغوية القديمة على نوع من الأطعمة، وعلى دابّة ضرب بياضها إلى الصفرة (الزبيدي، ٢٠٠٠م، مادّة «نرجس»؛ و«قرطس»). وأمّا كلمة «النرجس»، فتطلق على نوع من الرياحين تشبه به العين.

اتّفق أصحاب المعاجم القديمة والمعاصرة على أنّها معرّبة دخيلة في اللغة العربيّة، بيد أنّهم اختلفوا في أصلها؛ فذهب صاحب *جَمهَرة اللغة* إلى أنّها فارسيّة (ابن دريد، ١٩٨٧م، مادّة «رشن»)، وتبعه في ذلك لوئيس معلوف من المتأخرين، حيث عدّ كلمة «النرجس» فارسية تطلق على «**نبت من الرياحين من فصيلة النرجسيات، أصله بَصَل صغار وورقه شبيه بورق الكُرّاث، وله زهر مستدير أبيض أو أصفر تشبه به العين**» (١٣٧٤هـ. ش، مادّة «نرج»).

أمّا أغلب أصحاب المعاجم المعاصرة، خاصّة هم الذين فسّروا مصطلحات علم النفس، فعدّوها مشتقّة من اسم (نرجس Narcissus)، أحد أشخاص الأساطير الإغريقية (الشربيني، د ت، ص ١١٩).

تروي الأسطورة الإغريقية أنّ نرجس الذي كان يتميّز بمظهر جميل، قد شاهد أثناء تَجواله في أحد الأيام في الريف صورتَه المنعكسة في بحيرة هادئة، فوقع بجنون في حبّ نفسه، متمثّلة في صورته، وامتلأت باليأس لَمّا لم يستطع الوصول إلى محبوبه؛ فقتل

نفسه، ومن نقاط دمه السائلة على وجه الأرض بجوار الماء نمت زهرة عرفت منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا بزهرة النرجس. (البحيري، ١٩٨٧م، ص ٣) .

سواء كانت الكلمة فارسية أم يونانية، أم كانت دخيلة في اللغة الفارسية أوّلاً، ثمّ نقلت إلى اللغة العربية، فالمعروف أنّ فرويد استعان بهذه الأسطورة، واستعمل النرجسية للتعبير عن مفهوم الحبّ المَرَضي للذات، وتابعه رجال التحليل النفسي في ذلك.

عدّ علماء النفس الخصال التالية من ملامح هذا النوع من الشذوذ:

إنّ المصاب بالنرجسية يعظّم نفسه، ويبالغ في إنجازاته أو مواهبه، ويركّز غالباً على مشاكله الخاصة، وينشغل بأخيلة النجاح غير المحدود، والقوّة والألمعية والجمال. إنه يحبّ الظهور، ولا يعتني بالآخرين، ويتوقع أن يكون هو الشخص المفضّل دائماً بغضّ النظر عن تحمّل المسؤوليات الملقاة على عاتقه.

ومن أماراتها في المصاب بها الغضب والدهشة من أنّ الناس لا يفعلون ما يرغبه. ومنها: استفادته من الآخرين في سبيل رغباته الشخصية، وعدم اكتراثه بحقوقهم. ومنها: افتقار الرجل إلى التعاطف، وعدم القدرة على إدراك ما يشعر به الآخرون (السابق، ص ٤٧ـ٤٨).

إنّ المصابين بالنرجسية يتمتّعون غالباً بالجمال أو الذكاء أو التوفيق في الحياة، وهذه هي النواة الأولى لنموّ النرجسية فيهم (بيرقي، ١٣٨٧/٢/٢هـ. ش).

الجدير بالذكر أنّ النرجسية موجودة في ذات الأجناس البشرية، وهي مؤشّرة هامّة للثقة بالنفس والاعتداد بالذات واحترامها، ولكن بحدود معينة. فإن تجاوزت الحدود المعتدلة باتجاه الزيادة، تؤدي إلى الغرور، والغرور المستمرّ يؤدي إلى النرجسية المَرَضية. فللنرجسية في الأشخاص درجات تختلف من شخص إلى آخر؛ لذا قسّمها فرويد إلى الأوّلية التي توجد في كلّ أبناء البشر، والثانوية التي تظهر في شكلها المَرَضي (فرويد، ١٣٨٢هـ. ش، ص ١٥٥).

وقسّم «بيرستن» الشخصيات النرجسية إلى أربعة أنماط، لكلّ منها خصائصه وصفاته الفعلية (البحيري، ١٩٨٧م، ص ٥١).

قبل بيان ملامح النرجسية في شخصية المتنبّي ومظاهرها في شعره، يستلزمنا الوقوف على الفخر ومحاوره وأنواعه عند العرب؛ إذ إنّ الفخر أحسن موضع لتجلّي الشخصية النرجسية؛ فالتعرف عليه يظهر ما يفرّق فخر المتنبّي عن فخر غيره من الشعراء ، ويساعدنا في استنتاج ملامح النرجسية في شخصيّته.

الفخر

الفخر لغةً بمعنى التمدّح بالخصال والافتخار وعدّ القديم (ابن منظور، ١٩٩٢م، مادّة «فخر»). وجاء في كتاب *التعريفات*: «**الفخر التطاول على الناس بتعديد المناقب**» (الجرجاني، ١٩٨٥م، ص ١٧٢)؛ ولم يفرّق النقّاد القدماء بين الفخر والمدح إلاّ فيمن يدور الكلام حوله. عدّ أبو هلال العسكري الفخر والرثاء في عداد المدح فقال ـ وهو يذكر أغراض الشعر:

> **تركت المراثي والفخر؛ لأنّهما داخلان في المديح. وذلك أنّ الفخر هو مدحك نفسَك بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحسب وما يجري مجرى ذلك. والمرثية مديح الميّت، والفرق بينهما وبين المديح أن تقول: كان كذا وكذا، وتقول في المديح: هو كذا وأنت كذا...** (١٣١٩هـ، ص ٩٩).

وجاء في كتاب *العمدة* أنّ «**الافتخار هو المدح نفسه، إلاّ أنّ الشاعر يخصّ به نفسه وقومه...**» (القيرواني، ١٩٨١م، ص ١٤٣).

ذهب مصطفى صادق الرافعي إلى أنّ الفخر شطر من الهجاء، إذ يقصد به التفضيل والترجيح بين الصفات الممدوحة التي يعتزّ بها، والصفات المهجوّة التي يفتخر عليها، وذهب إلى أنّ حقيقية الفخر هي التأريخ؛ أي تسجيل الفضائل، سواء كانت الفضائل للقبيلة أو للفرد (الرافعي، ١٩٧٤م، ١٠٢).

يحبّ الإنسان نفسه بطبيعته، وكثيراً ما يقارن بين نفسه وغيره، فحينئذ ما يراه في نفسه ـ عادةً ـ هو فضائله، بينما لا يرى في غيره إلاّ مثالبه ونقائصه. فيرى بأنّه أفضل من غيره ـ اللهمّ إلاّ من غلب نفسه وذلّلها وسيطر عليها ـ فيحاول إبراز فضائله وأمجاده والفخر بها وكتمان معايبه أو تبريرها، كما يسعى، خاصّة عند الخصومة، إلى إخفاء مآثر خصمه وفضائله، ونشر معايبه ومثالبه. والأدب خير وسيلة له في سبيل ذلك، لذلك جعل حنّا الفاخوري الفخر «**رفيق الآداب كلّها منذ كان للشعوب آداب**» (الفاخوري، د ت، ص ٥).

أنواع الفخر

قسّم بعض العلماء الفخر إلى أقسامٍ حسَب من يدور حوله، وهي الفخر الذاتي، والفخر الديني، والفخر الحزبي. وأمّا الفخر الذاتي، فيدور غالباً حول القبيلة والآباء والأجداد، ويدور حول العقل والقلب واللسان والساعد (السابق، د ت، ص ٦). وهذا هو الذي نشأ بين العرب منذ جاهليتها، ولا يزال يستمرّ بأشكال متنوّعة.

الطريقة المثلى في الفخر الذاتي تتمثّل في جعل الممدوح يشرُف بآبائه، وجعل الآباء تزداد شرفاً به؛ لذا أنكر النقاد أن يُمدَح الإنسان بآبائه دون أن يكون ممدوحاً بنفسه، أو أن يفخر الشاعر بنفسه إلى الحدّ الذي يجعل قومه يشرُفون به دون أن يشرف هو بهم. (القاضي الجرجاني، ٢٠٠٦م، ص ٣١١).

إنّ الفخر في العهد العباسي ـ أي: في العهد الذي عاش فيه المتنبّي ـ بسبب اطلاع أهله على الثقافات المختلفة، من الإيرانية واليونانية والهندية وغيرها، والتغيّر في طرق المعيشة والرقيّ في سلّم الحضارة والثقافة، والتحوّل في الأوضاع الاجتماعية والسياسية، دار حول العقل والرأي والحزم في الأمور والتحرّر وحول الشجاعة الممزوجة بالحكمة والعقل، كما دار حول الأصل العريق والشاعرية الخلاّقة والزَّخرَفة الحافلة بالفنّ والوقار والتعالي في سلّم المجد المعنوي وما إلى ذلك (السابق، ص ١٠ـ١١).

محور الفخر في شعر المتنبّي

إنَّ المتنبّي أكثَرَ من الفخر في شعره، بحيث قلّما تجد في ديوانه قصيدة تخلو منه، وإن قلّت فيه قصائد اختصّت به وحده؛ فإنّ فخره مُبَعثَر في ديوانه كلّه؛ سواء كانت قصيدته في المدح أم الهجاء، والغزل أم الرثاء. وأمّا المحور الذي يدور عليه فخره، فهو ذات الشاعر وحدها؛ فلن تجد في ديوانه أثراً عن الفخر الديني أو الحزبي. وربّما يعود السبب إلى أنّ عصره خمدت فيه نيران النزاعات الدينية والحزبية، وإنْ لم يخلُ من نزاعات جرت بين الحكّام والثوريين، نتيجة لعدم الإنصاف بين طبقات الشعب وفساد السياسة والاقتصاد والخلق والشعور الديني؛ مثل ثورة الزنج وقبلها الثورة البابكية والخرّميّة، وهي التي أشار إليها العلماء (حسين، د ت، ص ٢٩ـ٣٠)؛ وإنّ ما نجده في ديوانه مدافعاً عن سيف الدولة أمام الرّوم يُعَدّ من المديح؛ لأنّه قلّما يدافع عن عقيدة سيف الدولة وأصحابه، وإنّما يدور كلامه حول شجاعته وجوده و نسبه و... ممّا يلهج به الشعراء في المديح غالباً.

عكف المتنبّي على الفخر الذاتي، ودار كلامه حوله وحده، ولكن هذا يختلف تماماً عمّا نعلمه عن هذا النوع من الفخر عند الجاهليين والأمويين الذي كان يدور حول الشاعر وقبيلته معاً، وكان مليئاً بذكر أمجاد القبيلة ومكارمهم وفضائلهم ومآثرهم، فالفخر عند المتنبّي اقتصر على ذات الشاعر وحدها. فقلّما تجد في ديوانه ذكراً لقومه أو فخراً بنسبه، حتّى حينما يهاجمه خصومه، فيعسرونه على الدفاع عنهم، لا يلبث طويلاً في الفخر بهم حتّى يرجع إلى الفخر بنفسه سريعاً؛ فكأنّه لا يرى فيهم ما يفتخر به، أو ربّما يرى ذكرهم تحقيراً لشأنه؛ فيميل كلّ الميل إلى أن يطوي ذكرهم ويجعلهم نسياً منسيّاً.

ملامح النرجسية في فخر المتنبّي

يجد الباحث في كلام المتنبي وفيما برز منه في حياته بعض مظاهر ذكرها علماء النفس للشخصية النرجسية؛ منها:

١. تفضيل النفس: من أهمّ ملامح النرجسية في المصاب بها تفضيل نفسه على غيره؛ وهذا ما تشاهده في أرجاء قصائد المتنبّي، كما ترى في قوله:

ما مُقامي بأرضِ نَخلَةَ إلاّ كمُقام المسيح بَينَ اليَهود

(المتنبّي، ٢٠٠٨م، ص ١٥٤)

وفي قوله:

أمِطْ عنكَ تشبيهي بما وكأنّه فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي

(المصدر نفسه، ص ٣٦٩)

وفي قوله:

أيَّ مَحَلٍّ أرتقي أيَّ عظيم أتّقي
وكلّ ما قد خَلَقَ الـ لاهُ وما لم يَخلُقِ
مُحتَقَرٌ في همَّتي كَشَعرَةٍ في مَفرِقي

(السابق، ص ٣٠٥)

إنّ هذا التفضيل ليس بمقتصر على لسانه، وإنّما تجد في حياته معالم تشير إلى اعتقاده بفضله على الناس، وبالتالي إلى وجود النرجسية في شخصيته. إنّه ترفّع عن مدح الوزير المهلّبي؛ لأنّه عزم على أن لا يمدح أقلّ من أمير (البديعي، د ت، ص ١٤٣)، واشترط على سيف الدولة أوّل اتّصاله به، إذا أنشده مديحه لا ينشده إلاّ وهو قاعد، وأنّه لا يكلّف تقبيل الأرض بين يديه (المرجع السابق، ص ٧١).

يفضّل المتنبّي نفسه على جميع العالمين إلاّ على ممدوحيه، لكنّه لا يجعلهم بلا ندٍّ فيما يمدحهم به، بل يجعل نفسه دائماً شريكاً لهم؛ فحين يفضّل ممدوحه على نفسه، لا يجعل بينه وبين نفسه شأواً كبيراً، بل يحفظ لنفسه هوّيته. إنّه حين يمدح الممدوح ويجعل عِرضه كالمسك يجعل نفسه كشريك له حين يجعل شعره كآلة الدقّ:

وذاكَ النّشرُ عِرضُكَ كانَ مِسكاً وذاكَ الشّعرُ فِهري والمَداكا

(المصدر نفسه، ص ٣٣٩)

وحين يجعل فعله كالشمس يجعل نفسه كإشراقها:

لَيسَ قَولي في شَمسِ فِعلِكَ كالشّمـ سِ ولكن في الشّمسِ كالإشراقِ

(المصدر نفسه، ص ٣١٢)

فالمتنبّي وإن يجعل ممدوحيه فويق نفسه، لا يعترف ببون بعيد بينه وبينهم. فتجد بين مدحه وبين مدح الشعراء فرقاً بيّناً، فحين لا يفكّر غيره إلاّ في الممدوح، يُدخل المتنبّي نفسَه فيما مدح به الممدوح نوعاً ما، لذا فرّق شوقي ضيف بين مدح المتنبّي ومدح غيره، وذكر بأنّ الأصل في الشاعر حين يمدح أن لا يفكّر إلاّ في ممدوحيه، أمّا المتنبّي، فيجعل مدائحه شركة بينه وبين ممدوحيه، ويضع فيها نفسه أوّلاً (ضيف، د ت، ص ٣٠٥).

٢. تحقير الناس: من ملامح أخرى للنرجسية فيمن أصيب بها تحقير المرء غيرَ نفسه؛ فإنّ المصاب بها من جهة يعظّم نفسه ومن جهة أخرى يحقّر الآخرين ويقلّل من شأنهم. فقد رأيت نماذج من شعر المتنبّي صوّر بها نفسه أعلى من جميع الناس، وأفضل من كلّ ما خلقه الله وما لم يخلقه، ولكنّه حين يصل إلى غيره، لا يعتدّ بهم، بل يحقّرهم، ويقلّل من شأنهم، بحيث يصوّرهم في غاية الدناءة والحقارة. ففي رأيه الناسُ كلّهم بهائم، غايةُ نفعهم أن يوصلوه إلى الممدوح:

لو استطعتُ رَكِبتُ الناسَ كُلَّهُمُ إلى سَعيد بن عبد اللّه بُعرانا

(المتنبّي، ٢٠٠٨م، ص ٥٦٣)

وإنّ حاسديه من الشعراء أصغر من أن يراهم الغراب مع حدّة بصره، وأحقر من أن يسمع ضجيجَهم القرادُ مع حدّة سمعه:

فهم في جُموع لا يراها ابنُ دَأيةٍ وهم في ضَجيج لا يحسّ بها الخُلدُ

(المصدر نفسه، ص ١٢٩)

وقد يجعلهم أحقر من الهباء:

وإنّ من العَجائب أن تراني فَتَعدِلَ بي أقَلَّ من الهَباءِ

(المصدر نفسه، ص ٢٥)

النّاس في عين المتنبي حقراء بقدر عظمة نفسه في زعمه، فليس فيهم من كان خليقاً بالاعتداد؛ فهو «**يرفع نفسه على الناس من حوله، ويزدريهم، ويحقد عليهم حقداً شديداً، بل إنّه ليحقد على الزمان**» (ضيف، د ت، ص ٣٠٥).

يستخدم المتنبّي جميع الأدوات الفنية لتحقير النّاس، كما ترى في البيتين التاليين. الأوّل في شعراء زمانه والثاني في أهل عصره، حيث استخدم صيغة التصغير ليصوّر بها غاية حقارتهم:

أفي كُلِّ يَومٍ تَحتَ ضِبني شُوَيعِرٌ ضَعيفٌ يُقاويني قَصيرٌ يُطاوِلُ

(المصدر نفسه، ص ٤١٣)

أذُمُّ إلى هذا الزمانِ أُهَيلَه فأعلمُهم فَدْمٌ وأحزَمُهم وَغْدُ

(المصدر نفسه، ص ١٢٣)

٣. تعظيم المشاكل: من أماراتٍ ذكرها علماء النفس للشخصية النرجسية تعظيم المصاب بها ما به من المشاكل وكثرة شكواه، وهذه جليّة في شعر المتنبّي. إنّه ينظر إلى الدهر وأهل زمانه نظرة متشائمة؛ ففي مواضع كثيرة من شعره يشكو من دهر لا يعطيه حقّه، بل يجعله هدفاً يرميه بسهامه:

رَماني الدّهرُ بالأرزاء حتى فؤادي في غِشاءٍ من نِبال

(المصدر نفسه، ص ٤٤)

ويشكو من أناس لا يفهمون شيئاً، رغم ادّعائهم العلم:

مَن لي بفهم أُهَيل عصر يدّعي أن يُحسبَ الهنديّ فيهم باقِلُ

(المصدر نفسه، ص ٣٥٤)

كما يشكو من الدهر الذي جعله غريباً في زمانه مثل غربة الصالح في قومه:

أنا في أُمَّةٍ تَدارَكَها اللّـ ـهُ غريبٌ كَصالِح في ثَمود

(المصدر نفسه، ص ١٢٤)

إنّ هذه الشكوى من الدهر وأهله نابعة عن تكبّر الشاعر وحبّه الزائد بنفسه الذي حمّله أن لا يرى لأحد فضلاً عليه، ويرى كلّ مقام حقيراً لشأنه؛ فينتظر أن ينزل في عصره منزلة لا مثيل لها. وحين يرى أنّ أهل زمانه لا يجعلونه حيثما يشاء، يشكو منهم ومن دهره، ويبالغ في بيان ما له من الهموم والمصاعب؛ لذا جعل عبد الرحمن صدقي تشاؤم المتنبّي ناتجاً عن جنون العظمة (صدقي، ١٣٥٤هـ، ص ١١٨٢)؛ وفرّق العقّاد بين تشاؤمه وتشاؤم المعرّي، فجعل تشاؤم المعرّي أصيلاً نابعاً عن طلب المعرفة والعلم بالنفس الإنسانية، ورأى تشاؤم المتنبّي نابعاً عن علّة عارضة، وهي أن زمانه وأهل زمانه لا ينيلونه ما يطلبه من الجاه. واستدلّ بأنّ المعرّي لا يعيب أبناء جيله خاصّة إلاّ لأنهم جزء من الناس أجمعين من آدم إلى أبد الآبدين، لكنّ المتنبّي يرى الذنب لجيله، ولا يعمّهم الحكم لجميع الناس (العقّاد، ١٣٥٤هـ، ص ١١٢٤).

٤. حبّ الظهور: ومن مظاهر أخرى في الشخصية المصابة بالنرجسية حبّ الظهور؛ بمعنى أنّ الفرد يطلب الالتفات إليه والإعجاب به من قبل الآخرين. وهذه الخصلة بالنسبة للمتنبّي قد تظهر في شعره بتعظيم أفعاله وجعلها بارزة للنّاس، كما ترى في قوله في الفخر بشعره:

وما قُلتُ من شعرٍ تكادُ بيوته إذا كُتبت يَبيَضُّ من نورها الحِبرُ

(المصدر نفسه، ص ٢١٠)

وفي قوله:

وإنّي لَنَجمٌ تَهتدي بيَ صُحبَتي إذا حالَ من دونِ النّجوم سَحابُ

(المصدر نفسه، ص ٧٤)

وقد تظهر في ميله الشديد إلى الإتيان بالغريب في كلامه، ليظهر لعلماء عصره سعة علمه باللغة. وهذا لفت نظر العكبري، حيث قال في شرح شعر المتنبّي:

إذا سارَت الأحداجُ فَوقَ نَباته تفاوَحَ مسكُ الغانيات ورَندُهُ

(المصدر نفسه، ص ٣٥٤)

«**إنّه كان يعمل الشعر الجيّد لمن يكون بالمكان من الفضلاء**» (العكبري، ١٨٧٠م، ص ٢٧٨).

وذهب شوقي ضيف في كتابه *الفن ومذاهبه في الشعر* إلى أنّه يريد الإغراب في اللفظ، ليثبت مهارته وتفوّقه في اللغة (ضيف، د ت، ص ٣٣٥).

٥. عدم الاعتداد بالآباء: من الملامح التي ذكرها علماء النفس للشخصية النرجسية عدم الاهتمام بالآباء في بعض المصابين بها (البحيري، ١٨٩٧م، ص ٥٢). فحين يرى المرء أنّه ليس في آبائه ما يعلو من شأنه ولا ما يرفع من قدره، لا يكترث بهم ولا يذكرهم كثيراً. وإذا تصفّحت ديوان المتنبّي، لا ترى فيه ذكراً لقومه إلاّ لجدّته التي نصّ التاريخ على أنّها كانت همدانية صحيحة النسب وصالحة من صلحاء النساء الكوفيات (ابن منظور، ١٩٨٤م، ص ٤٩).

وحين يُرغمه خصومه على الدفاع عنهم، لا يلبث في الفخر بهم طويلاً، حتّى يرجع إلى نفسه ويركّز فخره على ذاته:

أنا ابنُ مَن بَعضُهُ يَفوقُ أبا الـ ... باحِثِ والنِّجلُ بَعضُ مَن نَجَلَه
وإنما يَذكُرُ الجُدودَ لَهُم ... مَن نَفَروهُ وأنفَدوا حِيَلَه
فَخراً لِعَضبٍ أروحُ مُشتَمِلَه ... وَسَمهَرِيٍّ أروحُ مُعتَقِلَه
وَلْيَفخَرِ الفَخرُ إذ غَدَوتُ به ... مُرتَدياً خَيرَهُ وَمُنتَعِلَه

(المتنبّي، ٢٠٠٨م، ص ٣٨٢ـ٣٨٣)

كان المتنبي شديد الرغبة في إخفاء نسبه، وعلّل ذلك بـ«**أنّي أنزل دائماً على قبائل العرب، وأحبّ ألاّ يعرفوني، خيفة أن يكون لهم في قومي ترة**» (ابن العديم، ١٤٠٨هـ، ص ١٩٣)، ولكنّ الحق أنّ سبب إخفاء نسبه يرجع إلى أمر آخر، وهو أنّ المتنبّي شاعر فخور متكبّر يرى في ذكر آبائه تقليلاً من شأنه وتحقيراً لمقامه. ويشهد على ذلك ما ذكره ابن العديم في *بغية الطلب*: «**واجتزت أنا وأبو الحسن محمّد بن عبيد الله السلاميّ الشاعرُ على الجسر ببغداد، وعليه من جملة السوّال رجلٌ مكفوف، فقال السلامي: هذا المكفوف أخو المتنبّي. فدنوتُ منه، فسألته عن ذلك، فصدّقه وانتسب هذا النسب وقال: من هنا انقطع نسبنا**» (السابق). فلولا رأى المتنبّي في الانتساب بسائل أعمى احتقاراً لنفسه، لما فصل نسبَه عن نسبه، بل متّعه بما كسب في حياته. لذلك قال عبد الرحمن صدقي: «**لولا شعور المتنبّي بتواضع نسب أبويه لما قنع بالإشارة إلى عشيرته مرّات قلائل، وعلى هذه الصفة من الإيجاز والتعميم، ولَمَا انفكّ يقرع الأسماع ويجلّل الآفاق بذكر آبائه والإشادة بضخامة حسبهم في كلّ قصيدة، بمناسبة وغير مناسبة**» (صدقي، ١٣٥٤هـ، ص ١١٧٨).

٦. عدم الوفاء للممدوحين: وممّا يمكن أن يُنسَب إلى النرجسية في شخصيّة المتنبّي عدم وفائه لممدوحيه؛ إذ إنّ المصاب بالنرجسية يرى الآخرين امتداداً لنفسه، ويتوقّع أن يهيّئوا له كلّ ما يطلبه. فإن لم يفعلوا ما ينتظره، تركهم وغضب عليهم. وكان من دأب المتنبّي أن يظهر لممدوحه الصفاء والخلوص في بداية اتّصاله به، بحيث يوهمه بأنّه انجذب اليه صادقاً وسيقصّر مدحه عليه، لكن حين يرى منه ما لا يرضيه، اتّجه إلى غيره ورمى الأوّل بسهام كلامه. فكما نعلم، مدح المتنبّي سيف الدولة بعشرات القصائد، وجعل له صفاتاً طيبة وخلالاً حميدة، لكنّه حين رأى ميله إلى غيره، تركه متّجهاً إلى كافور في مصر؛ ولمّا لم يحصل على ما وعده، تركه وهجاه هجواً مرّاً (الصفدي، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٩)، وقصد عضدَ الدولة، ممّا يثبت أنّه ينظر إلى الممدوح كوسيلة للبلوغ إلى غاياته، وسُلّم للوصول إلى تحقيق آماله؛ لذا أخذ عليه محمّد مظهر سعيد خصلتَه هذه بقوله:

> **[المتنبّي] يستعرض الأمراء والحكام، ويتخيّر منهم أكثرهم دسمًا وأوفرهم مالاً، فيرفعه إلى السِّماكَين، بل إنه لا يتورّع، فقد يكون الأمير صغير الشأن فيخاطبه بصفات الألوهية (كالمعزّ المذل)؛ فيقول في علي بن إبراهيم التنوخي: (مذلّ الأعزّاء المعزّ)، وفي كافور: (جرى الخلف إلا فيك أنك واحد). ثمّ ينهلّ من الرجل حتّى يرتوي. فإذا أنس منه شيئاً من الانصراف إلى غيره ـ وهو يأبى إلاّ أن يكون المدلّل به ـ انصرف عنه إلى غيره، وأخذ يمدحه بمثل ما كان يمدح به الأوّل، بل إنّه لَيذمّ الأمراء السابقين في غير حاجة، ويعرّض بهم من غير ضرورة** (سعيد، ١٣٥٤هـ، ص ١٢١١).

خذ مثالاً لذلك قوله في كافور أوّل اتّصاله به:

أبا المِسكِ ذا الوَجهُ الّذي كُنتُ تائقاً ... إليه وذا الوَقتُ الّذي كُنتُ راجيا
لَقيتُ المَرَورى والشّناخيبَ دونَهُ ... وَجُبتُ هَجيراً يَترُكُ الماءَ صاديا
أبا كُلِّ طيب لا أبا المِسكِ وَحدَهُ ... وَكُلَّ سَحاب لا أخصُّ الغَواديا
يَدلُّ بمعنى واحد كُلَّ فاخرٍ ... وَقَد جَمَعَ الرَحمَنُ فيكَ المَعانيا

(المتنبّي، ٢٠٠٨م، ص ٦٠٧ـ٦٠٨)

قارنها بقوله فيه حين تركه متّجهاً إلى الكوفة :

وكانَ عَلى قُربنا بَينَنا ... مَهامِهُ مِن جَهلِهِ وَالعَمى...
وأسوَدُ مِشفَرُهُ نِصفُهُ ... يُقالُ لَهُ أنتَ بَدرُ الدّجى

وشِعرٍ مَدَحتُ به الكَركَدَنْ ... نَ بَينَ القَريضِ وَبَينَ الرّقى

فيك ناغَينا الهوى في مهده ... ورضعناه فكنتَ المُرضِعا

(السابق، ص ٣٤ـ٣٥)

لم يفعل المتنبّي هذا بكافور فقط، بل فعل بسيف الدولة مثلما فعل به ؛ فقد عرّض به في قصيدة له أيّام كان عند كافور :

رَأيتُكُم لا يَصونُ العِرضَ جارُكُمُ ... ولا يَدِرُّ عَلى مَرعاكُمُ اللبنُ
جَزاءُ كُلِّ قَريب مِنكُمُ مَلَلٌ ... وحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنكُمُ ضَغَنُ
وتَغضَبونَ على مَن نالَ رِفدَكُمُ ... حتى يُعاقِبَهُ التّنغيصُ وَالمَنَنُ

(السابق، ص ٥٧٤)

جذور النرجسية في المتنبّي

ذهب فرويد إلى أنّ في نفس كلّ إنسان منذ ولادته وقبل أن يتميّز الذاتُ (Ego) عن الـ«هي» (Id) طاقةً غريزية تسمّى بالليبدو (Libido)، الذي يعتبرها فرويد الطاقة الجنسية. وعند تكوين ذاته، تتجمّع شحنات كبيرة من هذه الطاقة فيها ؛ وهذا ما يسمّاه بالليبدو الذاتي (ego-libido). في هذه المرحلة يهتمّ الطفل بنفسه اهتماماً مفرطاً، وينقص اهتمامه بالآخرين ؛ وهذه هي المرحلة الأولى للنرجسية. ثمّ تنتقل الشحنات الليبدية من الذات إلى الموضوعات (objects) (البحيري، ١٩٨٧م، ص ١٨)، وهي الأشخاص أو الأشياء التي تبلغ بها الذات إلى أغراضها (صنعتي، ١٣٨٩هـ. ش، ص ٨٦). هذا يعني أنّ الطفل يهتمّ في ابتداء حياته بنفسه، ثمّ يتّجه إلى الآخرين لإرضاء غرائزه، لكنه قد يحدث أن ينسحب الليبدو من الموضوعات ويعود إلى الذات ويَثبُت فيها إثر موقف انفعالي ؛ وهذا يولد في نفسه «النرجسية المرَضية» أو ما يسمّى بـ«النرجسية الثانوية» (المرجع السابق، ص ١٨).

لقد واجه رأي فرويد في بعض جوانبه نقداً عنيفاً من قبل النقّاد ؛ لأنّه جعل الدور الأوّل للغريزة الجنسية في تكوين شخصية الإنسان. رغم ذلك، يمكن على ضوئه تفسير النرجسية، إذا لم تعدَّ غرائز الإنسان محصورة في غرائزه الجنسية، بل تشمل حاجاته كلَّها. بمعنى أنّ الانسان لقضاء حوائجه يهتمّ بالآخرين، فإذا واجه إقبالاً من قبلهم، استمرّ الارتباط بينه وبينهم ؛ وإن لم يبالوا به، يَعِد إلى ما في ذاته، ويشتغل بنفسه لقضاء حوائجه التي بعضها مادية ككسب المال، وبعضها معنوية مثل كسب الجاه.

لقد مرّ أنّ للمصاب بالنرجسية غالباً ما يميّزه عن الآخرين من جمال أو ذكاء أو غيرهما، فإنّه يشتغل بهذه الامكانيّات بدلاً من الاشتغال بالآخرين، ويزداد حبّها في نفسه شيئاً فشيئاً حتّى يصل إلى مرحلة يفضّل نفسه على الآخرين. وهذه هي المرحلة النرجسية المرَضية أو الثانوية.

نشأ المتنبي في بيت لم يكن له من المال ما يغنيه ولا من الجاه ما يُكسب به شأناً بين الناس، لكن كان في نفسه ما يميّزه عن جميع أهل عصره؛ فكان ذا حافظة حادّة وذكاء متوقّد بين زملائه. قال الخطيب البغدادي في *تاريخ بغداد* (٢٠٠١م، ص ١٠٣) عن حدّة ذاكرته:

أخبرني ورّاقٌ كان يجلس إليه [المتنبّي] يوماً، قال لي: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابنِ عبدان[1] قطُّ. قلت له: كيف؟ قال: كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي نحو ثلاثين ورقة ليبيعه. فأخذ ينظر فيه طويلاً. فقال له الرجل: يا هذا! أريد بيعَه وقد قطعتَني عن ذلك. وإن كنتَ تريد حفظه، فهذا إن شاء الله سيكون بعد شهر. فقال له: فإن كنتُ قد حفظتُه في هذه المدّة فما لي عليك؟ قال: أهَبُ لك الكتابَ. قال: فأخذتُ الدفتر من يده، فأقبل يتلو عليّ إلى آخره...

وكبر اتّساع المتنبّي بالعلم بكبر سنّه، بحيث سبق أدباء زمانه وعلماء عصره. فقد جاء في كتاب *الصبح المنبي* (البديعي، د ت، ص ١٤٢) أنّ أبا عليّ الفارسيّ «**قال له يوماً: كم لنا من الجموع على وزن فِعْلى؟ فقال المتنبّي في الحال: «حِجْلى» و«ظِرْبى»، قال الشيخ أبو عليّ: فطالعت في كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً، فلم أجد!**».

وجاء فيه أنّه وقع جدل بين أبي الطيّب اللغوي وابن خالويه في محضر سيف الدولة؛ فدخل المتنبّي في الجدل، وتكلم فيها بما قوّى حجة أبي الطيب اللغوي، وضعّف قول ابن خالويه (السابق، ص ٨٧). وجاء في *خزانة الأدب* (البغدادي، ١٩٩٧م، ٣٥٦ـ٣٥٧) أنّ ابن العميد قرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه، وتعجّب من حفظه وغزارة علمه.

إضافة إلى ذلك، كان له خيال واسع وقدرة فائقة على الشعر منذ صغره، حتّى أصبح في كبره من روّاد الشعر في الأدب العربي، بحيث قلّما رأى تاريخ الأدب العربي شاعراً يقرب منه.

يبدو أنّ المتنبي مال في صغره إلى أبيه وأهله بصفة الموضوعات (objects) أو الأشخاص الذين يظنّ أنّهم يُغنُونه ويقضون حاجاته المادية والمعنويّة. فلمّا خاب في ظنّه، عاد إلى ذاته (ego) واشتغل بها ليبحث فيها عمّا يقوم مقام الموضوعات الخارجية التي يئس منها؛ فوجد فيها ما يتفوّق به على الآخرين من حافظة حادّة وخيال واسع وقدرة فائقة على الشعر لا يملكها أحد من أقرانه؛ لذا أحبّ ذاته، وازداد هذا الحبّ فيه يوماً بعد يوم، خاصّة حينما رأى أنّ إمكانياته الذاتية هي التي تُبلغه إلى أغراضه وتجعله في مكان مكين من مجتمعه. فلمّا أشرق نجمه في سماء الأدب، تغنّى بخصاله وافتخر بنفسه وحدها وتجنّب عن الفخر بآباء لم يجد فيهم ما يزداده مالاً ولا ما يرفعه قدراً، بل لخمول ذكرهم وفقرهم يقلّل الانتساب بهم مقامه الرفيع الذي اكتسبه بإمكانياته.

وجد المتنبي في حياته موضوعين (objects) يخدمانه: أحدهما ذاته المشتملة على إمكانيّات فائقة، والثاني ممدوحيه الذين وجد فيهم ما يبلغه إلى آماله. أمّا ذاته، فمجّدها المتنبّي ومدحها بخصال حميدة تتّصف بها أو يحبّ اتّصافها بها: مدحها بالشجاعة

---

١. كان لقب والد المتنبّي «عِيدان السَّقّاء» (البديعي، د ت، ص ٢٠). والخطأ الذي تسرّب في بعض الكتب ومنها *تاريخ بغداد* ضبط اسم والده «عبدان» بالباء الموحدة، وهو خطأ نبّه عليه صاحب *تاج العروس* في مادة «عود». قال: «وعيدان السقاء ـ بالكسر ـ لقب والد الإمام أبي الطيب ...» (مستلّ من حاشية محققي *الصبح المنبي*، ص ٢٠).

والفصاحة وكثرة العلم والصبر والمجد والهمّة والوفاء والعفاف، وبالغ في مدح نفسه بحيث صوّر مقامها بين الناس كمقام المسيح بين اليهود، وادّعى لها شخصية فذّة لا يجوز تشبيهها بأحد من العالمين.

كان المتنبّي يتضجّر من أقلّ الأشياء إيذاءً لكثرة حبّه لذاته، فيشكو من قليل ما يؤذيها، ويعظّم ما يمسّه من المشاكل؛ كأنّه لا يتحمّل أنّ يمسّ هذه الذات التي يجد فيها غاياتها شيءٌ من السوء.

وأمّا ممدوحوه، فإنّهم يتحلّون عنده بأحسن الفضائل الإنسانيّة من الشجاعة والسخاء والعلم و... . جودهم يُخجل جود السحب، وشجاعتهم تقهر الدهر والأسد، وعلمهم يفضح الناس والكتب، لكن هذا المدح لا يلبث أمداً طويلاً، بل يطول مادام الممدوح يُسعف المتنبي ويقوم بإرضاء حاجاته. فحين رأى إعراضه عنه وخيبته في بلوغ غايات ذات يحبّها حبّاً لا مثيل له، تركه ووجد موضوعاً (object) آخر، أو قل: بحث عن بديل له يُرضيه ويُغنيه من فضله، ورمى الأوّل بسهام هجوه.

إذا كان المتنبّي تجنّب عن ذكر آبائه الذين لم يجد فيهم ما يُغنيه، ولم يتحمّل إعراض ممدوحيه الذين أغدقوا عليه عطاءهم ونعمهم وهجاهم حالما بدت له أمارات إعراضهم عنه، فمن المسلّم به أنّه لا يطيق تحمّل منافسيه وحسّاده الذين يسعون إبعاده عن بلوغ آماله بسعايتهم، ويحولون بينه وبين النيل إلى حاجات نفس يحبّها المتنبّي حبّاً قريباً من العبادة. فلا غرابة حين تجده يحقّرهم أشدّ تحقير، ويصوّرهم أبشع تصوير.

فمدْح المتنبّي للموضوعات (objects) بقدر دورها في إرضاء ذات الشاعر. يرتكز الشاعر في فخره على نفسه وحدها؛ لأنّ لها الدور الأوّل في إرضاء متمنّياته، ثمّ يمدح بعض الحكّام والأمراء طيلة زمانٍ يُسعفونه ويبلّغونه إلى غاياته. وأمّا آباءه، فهو يتجنّب عن ذكرهم؛ لأنّه لم يجد فيهم ما يُرضي نفسه ورأى ذكرَهم تحقيراً لشأنه. وأمّا الذين وقفوا أمام غايات نفسه وسعوا في إبعاده عن الوصول إلى حاجاته، فهجاهم هجواً قذعاً.

نتيجة البحث

أ. بعد دراسة شعر المتنبّي ودراسة تاريخ حياته، وجدنا بعض صفات تشير إلى إصابة الشاعر بالنرجسية لمطابقتها لخصال ذكرها علماء النفس للمصابين بها أوردناها سابقاً، وهي:

١. الفخر الذاتي في شعر المتنبّي يختلف عمّا جاء منه في شعر غيره. فبينما يدور هذا النوع من الفخر في شعر الشعراء على تعظيم فضائل الشاعر وأجداده معاً، لا يعظّم المتنبّي إلاّ مآثره ولا يفخر إلاّ بفضائله؛

٢. يفضّل الشاعر نفسه على جميع الخلق، ما عدا ممدوحيه. وهو في مدحه لهم لا يقول ببون بعيد بينه وبينهم، بل يُدخل نفسه في المدح نوعاً ما؛

٣. يحقّر الشاعر النّاس ويقلّل من شأنهم ويستمدّ من جميع إمكانيّاته الفنيّة ليصوّرهم في غاية الدناءة والحقارة؛

٤. كان الشاعر يحبّ الظهور والالتفات إليه؛ وظهرت آثار هذا الحبّ في تعظيم أفعاله، كما ظهر في ميله الشديد إلى الاتيان بالكلمات الغريبة في شعره لإظهار تفوّقه على الآخرين؛

٥. حسب ما جاء في كتب التاريخ، ترفّع المتنبّي عن مدح بعض الوزراء كبراً، واشترط على سيف الدولة الحمداني لمدحه له شرطين غريبين لا يشترطهما شعراء المديح؛

٦. ترك المتنبّي سيف الدولة الحمداني و كافور ـ وهما من ممدوحيه ـ حينما رأى منهما ما لا يرضاه، وذمّ الأوّل تعريضاً، وهجا الثاني هجاء مرّاً لاذعاً. وهذا يطابق لما ذكره علماء النفس من أنّ المصابين بالنرجسية ينتظرون من الآخرين أن يفعلوا ما يرضاه. فإن لم يفعلوه، غضبوا عليه وتركوه.

ب. يبدو أنّ خيبة المتنبّي من أهله الذين لم يتمتّعوا بكثرة الثراء ولا برفعة النسب في إرضاء نفسه أدّت إلى أن يعود الشاعر إلى ذاته ويشتغل بما فيها. فلمّا رأى فيها ما يتفوّق به على أقرانه، نمت في نفسه النرجسية، واستحكمت جذورها فيها باتّساع علمه في الفنون الأدبية المتنوعة وتعرّفه على الثقافات المختلفة، وخاصّة حين رأى تخلّف علماء عصره وشعراء زمانه عن بلوغ شأوه في العلم والإجادة في الشعر.

❁❁❁

المصادر والمراجع

أ. العربية

١. ابن العديم، عمر بن أحمد. (١٤٠٨هـ). ***بغية الطلب في تاريخ حلب***. (تحقيق سهيل زكّار). (ج ١). بيروت: دار الفكر.

٢. ابن خلّكان، محمد بن أحمد. (د ت). ***وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان***. (تحقيق إحسان عبّاس). (ج ١). بيروت: دار صادر.

٣. ابن دريد، محمد بن الحسن. (١٩٨٧م). ***جمهرة اللغة***. (ط ١). بيروت: دار العلم للملايين.

٤. ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٨٤م/١٤٠٤هـ). ***مختصر تاريخ دمشق***. (تحقيق رياض عبد الحميد مراد). (ج ٣). (ط ١). دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر. [وهو مختصر تاريخ دمشق لعلي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي (٤٩٩ـ٥٧١هـ)، واسم الكتاب الكامل: *تاريخ مدينة دمشق ـ حماها الله ـ وذكر فضلها، وتسمية من حلّها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها*].

٥. ـــــــــــــــــ. (١٩٩٢م/١٤١٢هـ). ***لسان العرب***. (ط ٢). بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي.

٦. البحيري، عبد الرقيب أحمد. (١٩٨٧م). ***الشخصية النرجسيّة***. القاهرة: دار المعارف.

٧. البديعي، يوسف. (د ت). ***الصبح المنبي عن حيثية المتنبي***. (حقّقه مصطفى سقا، ومحمد شتا، وعبد زيادة عبد). (ط ٣). القاهرة: دار المعارف.

٨. الجرجاني، علي بن محمد. (١٩٨٥م). ***كتاب التعريفات***. بيروت: مكتبة لبنان.

٩. حسين، طه. (د ت). ***مع المتنبي***. (ط ١٣). القاهرة: دار المعارف.

١٠. الحسماني، عبد علي، وعبد الخالق نجم. (١٩٩٠م). «دراسة نفسيّة لشخصيّة المتنبّي من خلال شعره». *مجلة كلّيّة الآداب جامعة بغداد*. العدد ٣٧. من صفحة ٢١٤ إلى ٢٤٥.

١١. الخطيب البغدادي، أحمد بن عبدالمجيد. (٢٠٠١م). ***تاريخ مدينة السلام***. (تحقيق بشّار عواد معروف). (ج ٤). (ط ١). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

١٢. البغدادي، عبد القادر بن عمر. (١٩٩٧م). ***خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب***. (تحقيق عبد السلام محمد هارون). (ج ٢). (ط ٤). القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٣. الرافعي، مصطفى صادق. (١٩٧٤م/١٣٩٤هـ). ***تاريخ آداب العرب***. (ج ٣). بيروت: دار الكتاب العربي.

١٤. الزبيدي، مرتضى بن محمد. (٢٠٠٠م/١٤٢١هـ). ***تاج العروس من جواهر القاموس***. (تحقيق محمّد الحجازي). (ط ٢). الكويت: وزارة الأعلام.

١٥. الزركلي، خير الدين. (٢٠٠٢م). ***الأعلام***. (ج ١). (ط ١٥). بيروت: دار العلم للملايين.

١٦. سعيد، محمد مظهر. (١٣٥٤هـ). «نفسية المتنبّي: تحليل لبعض نواحي حياته». ***الهلال***. الجزء ١٠، السنة الـ٤٣، من صفحة ١٢٠٩ إلى ١٢١٢.

١٧. السمعاني، عبد الكريم بن محمد. (١٩٨٤م/١٤٠٥ هـ). ***الأنساب***. (ج١١). (ط ١). القاهرة: مكتبة ابن تيمية.

١٨. الشربيني، لطفي. (د ت). ***معجم مصطلحات الطب النفسي***. الكويت: مركز تقريب العلوم الصحية، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

١٩. صدقي، عبد الرحمن. (١٣٥٤هـ). «جنون العظمة في المتنبّي: مرض نفسي ـ فضيلة خلقية». ***الهلال***. الجزء١٠، السنة الـ٤٣، من صفحة ١١٧٧إلى ١١٨٧.

٢٠. الصفدي، صلاح الدين. (٢٠٠٠م/١٤٢٠هـ). ***الوافي بالوفيات***. (تحقيق أحمد الأناووط، وتركي مصطفى). (ج ٦). (ط ١). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢١. ضيف، شوقي. (د ت). ***الفن ومذاهبه في الشعر العربي***. (ط ١١). القاهرة: دار المعارف.

٢٢. عتيق، عبد العزيز. (١٩٧٢م). ***في النقد الأدبي***. (ط ٢). بيروت: دار النهضة العربية.

٢٣. عزام، محمّد. (٢٠٠٦م). «التفسير النفسي العربي للأدب». ***المعرفة***. السنة الـ٤٥. العدد ٥١٢. من صفحة ٩٤ ـ ١١٦.

٢٤. العسكري، أبو هلال. (١٣١٩هـ). ***كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر***. (ط ١). الآستانة: مطبعة محمود بك.

٢٥. العقاد، عبّاس محمود. (١٣٥٤هـ). «شخصية المتنبّي في شعره». ***الهلال***. الجزء١٠، السنة الـ٤٣، من صفحة ١١٢٢ إلى ١١٢٦.

٢٦. العكبري، عبدالله بن الحسين. (١٨٧٠م). ***التبيان في شرح الديوان***. (ج ١). (ط ١). القاهرة: المطبعة العامرية الشرقية.

٢٧. الفاخوري، حنّا. (د ت). ***الفخر والحماسة***. (ط ٥). القاهرة: دار المعارف.

٢٨. القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز. (٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ). ***الوساطة بين المتنبّي وخصومه***. (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد علي البجاوي). (ط ١). بيروت: المكتبة العصرية.

٢٩. القيرواني، الحسن ابن رشيق. (١٤٠١هـ. ق/ ١٩٨١م). ***العمدة في محاسن الشعر و آدابه***. (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد). (ج ٢). (ط ٥). بيروت: دار الجيل.

٣٠. المتنبّي، أحمد بن حسين. (٢٠٠٨م). ***الديوان***. (ط ١). بيروت: دار الفكر اللبناني.

٣١. محمّد، سراج الدين. (د ت). ***الفخر في الشعر العربي***. بيروت: دار الراتب الجامعية.

٣٢. معلوف، لويس. (١٣٧٤هـ. ش). ***المنجد في اللغة***. (ط ٤). طهران: پيراسته.

ب. الفارسية

٣٣. بيرقي، نرگس. (١٣٨٧/٢/٢هـ.ش)، «بيماری خودشيفتگی»، سايت تبيان:
www.tebyan.net/nutrition_health/spiritual_mentalhealth/depression_mentalproblems/٦٥١٩١/٢١/٤/٢٠٠٨.html

٣٤. فرويد، زيگموند. (١٣٨٢هـ. ش). «پيش در آمدی بر خودشيفتگی»؛ (ترجمه حسين پاينده). ***ارغنون***. ش ٢١. از ١٥٣ تا ١٨٤.

٣٥. صنعتی، محمّد. (١٣٨٩هـ ش). ***تحليل‌های روانشناختی در هنر و ادبيات***. (چاپ پنجم). تهران: نشر مركز.